

ما هو التعليم الشامل؟ دليل للتعليم معاً

مقدمة: مدرسة للجميع

الذهاب إلى المدرسة هو أحد الطقوس القليلة المشتركة في جميع أنحاء العالم. إنها المكان الذي نتعلم فيه المهارات التي تعدنا لمسؤولياتنا كبالغين، ونكوّن فيه صداقات تدوم مدى الحياة، ونتعرف من خلاله على القواعد التي تحكم مجتمعاتنا وأوطاننا.

لكن هذه التجربة ليست متاحة للجميع. فهناك 77 مليون طفل لا يذهبون إلى المدرسة، منهم 25 مليوناً على الأقل من ذوي الإعاقة. خلف هذه الأرقام، هناك تجارب إنسانية مؤلمة لأطفال يتم تهملهم وسلبهم كرامتهم.

لقد عُوّلت كوحش — لا كإنسان — لأنني لا أستطيع التحدث أو إظهار ما أفكر فيه بسهولة. أريد أن أقول للعالم إنه يجب معاملة الجميع كبشر حتى لو لم يتمكنوا من التحدث.

— ثياندي، هولندا

في هذا المقال، سنستكشف المعنى الحقيقي لـ "التعليم الشامل"، ونوضح لماذا هو ليس مجرد فكرة جيدة، بل تحول ضروري يفيد كل طالب، وكيف يختلف جذرياً عن المحاولات السابقة لتعليم الأطفال ذوي الإعاقة.

لفهم أهمية الشمول، من الضروري أولاً أن ننظر على كيف تطورت الأساليب التعليمية بمرور الوقت، مما مهد الطريق لظهور هذا المفهوم التحويلي.

1. الطريق إلى الشمول: نظرة على الماضي

بدأت الجهود الأولى لتعليم الأطفال ذوي الإعاقة على يد أهاليهم. ففي الأربعينيات وما بعدها، أنشأ الأهالي مدارسهم الخاصة المنفصلة، غالباً في أحياء الكنائس أو المنازل، لأن أطفالهم لم يكونوا مقبولين في المدارس العادية.

ومع مرور الوقت، أدرك هؤلاء الأهالي حقيقة محبطة: التعليم في بيئة منفصلة يعد أبناءهم لحياة من العزلة والانفصال عن المجتمع. لم يكن الطلاب يتعلمون كيفية الانسجام مع الآخرين، ولم يكن الآخرون يتعلمون كيفية الانسجام معهم.

من هنا، ظهرت المحاولة الأولى لسد هذه الفجوة، وهي ما عُرف بـ "الإدماج" (Integration). كانت الفكرة هي وضع الطلاب ذوي الإعاقة في الفصول الدراسية العادية. لكن هذا النهج واجه تحديات كبيرة ولم يحقق النجاح المأمول لعدة أسباب، أبرزها:

- **عدم تغيير هيكل الفصل:** كان يُتوقع من الطالب ذي الإعاقة التكيف مع النظام التعليمي القائم، بدلاً من تكييف النظام ليلبي احتياجاته. فالهيكل الدراسي والمناهج لم تتغير.
- **دور المساعد:** غالباً ما كان يُعيّن مساعد للطالب، والذي كان في كثير من الأحيان هو المعلم الفعلي له. هذا الأمر قلل من مسؤولية معلم الفصل الأساسي وخلق حاجزاً بين الطالب وأقرانه، مما أعاق تكوين الصداقات والعلاقات الطبيعية.

كان من الواضح أن مجرد وضع طالب في فصل دراسي ليس كافياً. لقد أظهرت قيود الإدماج أن هناك حاجة إلى تحول جوهري في الفكر، وهو ما أدى إلى ظهور مفهوم التعليم الشامل.

2. الفكرة الكبيرة: ما هو "الشمول" الحقيقي؟

التعليم الشامل ليس تحسباً تدريجياً للإدماج، بل هو قطيعة فلسفية كاملة معه. إنه بقلب السؤال رأساً على عقب: فبدلاً من أن نسأل "كيف يمكن للطالب أن يتأقلم مع النظام؟"، أصبحنا نسأل "كيف يجب أن يتغير النظام ليلائم كل طالب؟". تدعم هذا التحول نظريات تربوية حديثة، مثل نظرية "الذكاءات المتعددة" لهوارد غاردنر، التي تعترف بأن الأطفال يتعلمون بطرق متنوعة ومختلفة.

تقدم منظمة اليونسكو تعريفاً رسمياً يوضح عمق هذا المفهوم:

...عملية معالجة وتلبية الاحتياجات المتنوعة لجميع المتعلمين من خلال الممارسات الشاملة في التعلم والثقافات والمجتمعات، وتقليل الإقصاء داخل التعليم ومنه. ويتضمن ذلك تغييرات وتعديلات في المحتوى والمناهج والهياكل والاستراتيجيات، برؤية مشتركة تشمل جميع الأطفال في الفئة العمرية المناسبة واقتناع بأن مسؤولية تعليم جميع الأطفال تقع على عاتق النظام العادي.

— اليونسكو (2006)

لفهم الفارق بشكل أفضل، يمكننا مقارنة المفهومين في الجدول التالي:

الشمول (Inclusion)	الإدماج (Integration)
التركيز على تغيير البيئة لتناسب الطالب.	التركيز على وضع الطالب في بيئة قائمة.
يُنظر إلى النظام على أنه هو الذي يحتاج إلى المرونة.	يُنظر إلى الطالب على أنه هو الذي يحتاج إلى التكيف.
هو نهج يشمل النظام بأكمله.	غالبًا ما يكون حلاً فردياً.

الفائدة المجتمعية لهذا التحول هائلة، وتلخصها عبارة بليغة رفعها أعضاء منظمنا في كينيا على قمصانهم: "الأطفال الذين يتعلمون معاً، يتعلمون كيف يعيشون معاً".

من المهم الإشارة إلى أن مفهوم الشمول نفسه هو موضوع نقاش غني ومستمر. فبعض المنظمات، خاصة تلك التي تمثل الطلاب الصم والمكفوفين، تؤكد على أهمية توفير خيارات تتيح التعلم الجماعي للحفاظ على اللغة والثقافة الخاصة، معتبرة أن الإدماج البسيط في فصل دراسي عادي دون دعم متخصص قد يؤدي إلى العزلة بدلاً من الشمول الحقيقي.

إن فهم هذا التعريف يفتح الباب أمام استكشاف الفوائد الملموسة التي يقدمها الشمول ليس فقط للطلاب ذوي الإعاقة، بل لكل فرد في بيئة التعلم.

3. لماذا هو مهم: فوائد للجميع

لا يقتصر أثر التعليم الشامل على فئة معينة، بل يمتد ليشمل جميع الطلاب والمعلمين والمجتمع بأسره.

للطلاب ذوي الإعاقة: فرصة للنمو والانتماء

التعلم في بيئة شاملة يمنح الطلاب ذوي الإعاقة فرصاً حيوية للنمو.

- **المهارات الأكاديمية والاجتماعية:** يتيح لهم التفاعل مع أقرانهم التعلم منهم والافتداء بهم، مما يعزز مهاراتهم الأكاديمية والاجتماعية بشكل طبيعي.

- **الصداقات والانتماء:** يكوّنون صداقات حقيقية مع أطفال غير معاقين في مجتمعهم المحلي، مما يضع أساساً لمشاركتهم الكاملة في الحياة لاحقاً ويقلل من الشعور بالعزلة.
- **الاستعداد للحياة:** يُعَدُّهم التعليم الشامل لحياة من المشاركة الفعالة في المجتمع بدلاً من حياة قائمة على الانفصال والعزلة.

للطلاب غير المعاقين: دروس في التعاطف والتعاون

الفوائد لا تقل أهمية بالنسبة للطلاب غير المعاقين، حيث تساهم في بناء شخصياتهم ورؤيتهم للعالم.

- **فهم التنوع:** يتعلمون بشكل مباشر عن التنوع البشري ويقدرونه، مما ينمي لديهم التعاطف والاحترام ويقلل من الأحكام المسبقة.
- **تطوير التعاون:** يدفع التعليم الشامل المعلمين إلى ابتكار استراتيجيات تدريس جديدة تركز على التعاون والعمل الجماعي، وهي مهارات تفيد جميع الطلاب في حياتهم المستقبلية.

ولكن هذه الفوائد العظيمة لا تتحقق بمجرد النوايا الحسنة. إنها تتطلب بنية تحتية تعليمية قائمة على مبادئ أساسية راسخة، وهي ما تشكل أسس المدرسة الشاملة الناجحة.

4. أسس المدرسة الشاملة

لكي يكون التعليم الشامل ناجحاً، يجب أن يركز على أسس ومبادئ واضحة تحوّل الرؤية إلى واقع ملموس في كل فصل دراسي. تستند المبادئ التالية إلى سياسة "منظمة الشمول الدولية بشأن التعليم الشامل":

1. **عدم التمييز:** يعني أن لكل طفل الحق في الالتحاق بالمدرسة المحلية في مجتمعه، بغض النظر عن قدراته أو إعاقته. فالمدرسة هي لجميع أطفال الحي، دون استثناء.
2. **إمكانية الوصول (Accessibility):** لا يكفي قبول الطالب، بل يجب أن تكون البيئة المدرسية متاحة له بالكامل. وهذا يشمل تصميم المباني (مثل الممرات المنحدرة) والمواد التعليمية (مثل الكتب المطبوعة بطريقة برايل أو المواد الرقمية) بحيث يمكن للجميع استخدامها بسهولة.
3. **التكيف مع الاحتياجات الخاصة (Accommodation):** يعني أن النظام التعليمي يتبنى أساليب مرنة وبديلة في التدريس والتعلم. ومن الأمثلة العملية على ذلك، تطبيق المعلمين لنظرية "الذكاءات المتعددة"، حيث يستخدمون استراتيجيات متنوعة تخاطب الذكاء اللغوي والموسيقي والحركي والبصري لتلبية احتياجات كل طالب.
4. **المشاركة (Participation):** الشمول الحقيقي يتجاوز مجرد الحضور الجسدي. يجب أن يشارك جميع الطلاب بفعالية في الحياة الأكاديمية والاجتماعية للفصل الدراسي والمدرسة، وأن يشعروا بأنهم جزء لا يتجزأ من مجتمع المدرسة.

هذه المبادئ العملية لا تأتي من فراغ، بل هي تجسيد لإطار أوسع من حقوق الإنسان التي تدعم وتضمن حق كل طفل في التعليم.

5. الوعد العالمي: حق وليس معروفاً

التعليم الشامل ليس ترفاً تربوياً أو خياراً من بين خيارات، بل هو ضرورة أخلاقية وحق إنساني أصيل، وهو حق معترف به دولياً. هناك معلمان دوليان رئيسيان شكّلا حجر الزاوية في ترسيخ هذا الحق:

- **بيان سالامانكا (1994):** وُصف هذا البيان بأنه "منارة أمل"، حيث كان أول اعتراف دولي واسع النطاق بأهداف التعليم الشامل. وقد وقّعت عليه 92 حكومة، مما جعله نقطة تحول تاريخية.

- اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة (2006): تعتبر هذه الاتفاقية وثيقة قانونية ملزمة. تنص المادة 24 منها صراحة على ضمان "نظام تعليمي شامل على جميع المستويات"، مما يحول التعليم الشامل من مجرد توصية إلى التزام قانوني على الدول الموقعة.

إن الاعتراف العالمي بالتعليم الشامل كحق يمثل نقطة انطلاق قوية، ويضع على عاتقنا جميعاً مسؤولية العمل نحو بناء مستقبل يكون فيه التعلم معاً هو القاعدة وليس الاستثناء.

الخاتمة: بناء مستقبل نتعلم فيه معاً

التعليم الشامل، في جوهره، هو نهج تحويلي يعيد تعريف الهدف من المدرسة. إنه يتجاوز فكرة تجميع الطلاب في مكان واحد، ليركز على تغيير الأنظمة التعليمية نفسها لتكون مرنة ومستجيبة للتنوع البشري الهائل. وكما رأينا، فإن فوائده لا تقتصر على الطلاب ذوي الإعاقة، بل تمتد لتشمل كل فرد في المجتمع.

الأمر لا يتعلق فقط بالمكان الذي يتعلم فيه الطلاب، بل بخلق ثقافة مدرسية يشعر فيها الجميع بالانتماء والتقدير والقدرة على تحقيق أقصى إمكاناتهم. إنه استثمار في مجتمع أكثر تعاطفاً وعدلاً، حيث يصبح التنوع مصدر قوة لا سبباً للانقسام.

إن بناء مستقبل نتعلم فيه معاً هو السبيل الوحيد لضمان ألا يُعامل أي طفل آخر "كوحش"، وأن يصبح ملايين الأطفال الغائبين عن مدارسنا جزءاً لا يتجزأ من قصة نجاحنا المشتركة.